

كتب بالإنكليزية

قياس القدس:

صندوق استكشاف فلسطين

والمصالح البريطانية في الأرض المقدسة*

**Measuring Jerusalem: The Palestine
Exploration Fund and British Interests
in the Holy Land**

John James Moscrop

London: Leicester University Press, 2000.

242 pages. \$74.95 cloth

كان صندوق استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund) من أولى مؤسسات علم الآثار الأوروبية التي تدرس فلسطين. وقد أنشأه في إنكلترا سنة 1865 شخصيات بارزة في مؤسسات البلد الدينية والأرستقراطية والتجارية لدراسة آثار البلاد المقدسة، وسلوكها وعاداتها، وطوبوغرافيتها، وجيولوجيتها، وعلومها الطبيعية (علم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الأرصاد الجوية)، على أساس أن "ما من بلد يجب أن يكون محطاً اهتمامنا الشديد كذلك الذي كتبت فيه وثائق ديننا، ووقعت فيه الأحداث التي يصفها".

إن تاريخ صندوق استكشاف فلسطين منذ سنة 1865 حتى بداية الحرب العظمى في سنة 1914 مثير للاهتمام، لأننا نجد فيه بذور كثير من المشكلات التي تلف فلسطين اليوم. فرواية جون موسكروب الدقيقة والتفصيلية تكشف كيف ترجم الرجال الإنكليز الورعون في العصر الفكتوري إخلاصهم لنص التوراة إلى إيمان بأن الأرض التي يصفها تعود إليهم من الناحية الروحية. ويبين موسكروب كيف أن هذا التماهي الروحي مع فلسطين تطور إلى سياسة حكومية

* مترجم عن الإنكليزية من:

Journal of Palestine Studies, vol. XXXI, no. 1, Autumn 2001, pp. 86-87.

بريطانية أصبحت بموجبها فلسطين جزءاً من الإمبراطورية وملكية تتنازع في شأنها القوى الإمبريالية الأخرى في أوروبا المسيحية.

أطلق صندوق استكشاف فلسطين حملاته لرسم خرائط الولايات العثمانية في فلسطين ومسحها والتنقيب فيها. وقد مهدت هذه الحملات المبكرة لعلم الآثار التوراتي في القرن التالي. ولم ينظر سوى الآن إلى الافتراضات الفكرية التي عمل بموجبها هؤلاء المتحمسون البريطانيون (وكثيرون منهم ضباط عسكريون ومهندسون ملكيون) باعتبارها تنتمي إلى عصر إيمان لا إلى عصر عقلانية: فقد كان هدفهم المشترك دراسة الأرض ومسحها لـ"إثبات" حقيقة الرواية التوراتية. ويضغط من الإيرل شافتسبري، الواسع النفوذ (المشهور في التاريخ البريطاني بأنه أبو التشريع الاجتماعي الرؤوف بتحديد ساعات عمل العمال الصناعيين)، أنشئت قنصلية بريطانية في القدس سنة 1856. كان هدفها سياسياً وروحياً على حد سواء. فعلى الصعيد السياسي، أعطت بريطانيا موطئ قدم في ركن استراتيجي من الإمبراطورية العثمانية الضعيفة؛ وعلى الصعيد الروحي، أعطت بريطانيا دوراً بريطانياً في الأرض المقدسة يتمثل في الحماية بعيدة الاحتمال لليهود في فلسطين. وكان الإيرل شافتسبري، على غرار الكثيرين في وقته، يؤمن بالمعتقد الإنجيلي أن هداية اليهود إلى الإيمان القويم (الأنغليكاني) تبشّر بالقدوم الثاني للمسيح. وكان يُنظر إلى توفير الحماية لليهود متى أمكن ذلك كخطوة في هذا الاتجاه، ويلي ذلك (كما يرجى) هداية اليهود إلى المسيحية. عمل هذا التعلّق الصوفي بفلسطين من قبل حكام بريطانيا بمثابة أرض خصبة لأفكار الصهيونية المبكرة، على الرغم من أن موسكروب لا يشير إلى ذلك، وفسّر الدعم البريطاني الرسمي لإقامة وطن لليهود في فلسطين، وهو ما توجّج بإعلان بلفور والالتزام الذي قامت عليه السياسة البريطانية في أثناء الانتداب بإقامة وطن قومي لليهود.

عندما كان صندوق استكشاف فلسطين يلائم مصالح وزارة الحرب، كان الصندوق يُستخدم كمؤسسة متقدمة تجري تحت رايته حملات رسم الخرائط العسكرية والمسوحات المهمة الأخرى، وخصوصاً بعد حفر قناة السويس. إن مسح غرب فلسطين من قِبَل صندوق استكشاف فلسطين يعيد تأسيسه، بقيادة هوراثيو هربرت كتشنر (لورد كتشنر لاحقاً)، لم يوفّر بيانات استراتيجية قيّمة فحسب، بل حدّد فلسطين أيضاً ككيان جغرافي حديث. وفي سنة 1912، أطلقت حملة مماثلة لرسم خريطة منطقة جنوب سيناء، وكان الشاب ت. إ. لورنس أحد علماء الآثار المستخدمين لإضفاء طابع بحثي مقنع على الحملة.

يتفحص هذا المؤلف التفصيلات العملية للعلاقة بين المصالح البريطانية الإمبريالية وصندوق استكشاف فلسطين، ويترك الاستنتاجات للآخرين. ونتعرّف بانتظام إلى المبالغ الدقيقة الموجودة في الحسابات المصرفية لصندوق استكشاف فلسطين بينما ترتفع ثروته وتهبط.

وباستخدام موسكروب للمقاربة الزمنية التقليدية وتركيزه على التفصيلات، فإنه يخدم غايات القراء الذين يريدون الوقائع لا غير. والكتاب بطيء من ناحية السرد التاريخي. ينتهي الكتاب بدخول الجنرال أَلنبي التاريخي إلى القدس راجلاً في سنة 1918. وثمة ذكر في مكان آخر من الكتاب لصندوق استكشاف فلسطين في الفترة التي تلت. وربما يتفاجأ البعض عندما يعلم أن صندوق استكشاف فلسطين لا يزال قائماً: وهو لا يزال يشغل المبنى الصغير نفسه في وسط لندن الذي كان يشغله لنحو 100 عام، وذلك بفضل راعٍ ثري اشترى العقار. وهو لا يزال يُصدر دورية *Palestine Exploration Fund Quarterly*، ويضم مكتبة صغيرة لا نظير لها، لكن أيام مجده ولّت منذ زمن.

إدوارد فوكس

مؤلف كتاب

*Sacred Geography: A Tale of Archaeology
and Murder in the Holy Land*

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx